



الأشجار تموت واقفة

عن قصة الشهيد (*)

هشام العبيدان

بقلم
فوزية السويلم

(*) تمت الاستعانة بحديثات الشهيد من كتاب د. نجاه الجاسم (شهداء الكويت: بطولاتهم وتضحياتهم - الجزء الأول - ص ٨١ - ٩٣).

الأشجار تموت واقفة

- ١ -





953.8 السويلم ، فوزية.
الأشجار تموت واقفة: قصة الشهيد هشام العبيدان / بقلم فوزية السويلم.
ط5 - الكويت: مكتب الشهيد، 2013
22ص : 21سم. - (بصمات في تاريخ الكويت)

1 - الشهيد هشام العبيدان.
2 - الكويت - تاريخ - الاحتلال العراقي (1990/8/2 - 1991/2/26).
أ- العنوان. ب- السلسلة ج- مكتب الشهيد. الكويت (ناشر)

Depository Number: 2005/00357

ISBN: 99906 - 84 - 07 - 3

الأشجار تموت واقفة

- ٢ -





«إهداء»

إلى أرضي الصغيرة ...

إلى حبي الكبير ...

إلى من يستحق التضحية والعطاء ...

«إلى الكويت»

مكتب الشهيد

الاشجار تموت واقفة

- ٤ -





إن كانت المعاناة والآلام بما يصاحبها من آمال وكبرياء تتفتح أدباً وشعراً
وفناً، فذلك هو حال الحركة الأدبية والثقافية في دولة الكويت التي
انتصرت وجدانياً وأدبياً للتطورات السياسية والاجتماعية والإنسانية التي
عاشها العالم العربي منذ منتصف القرن الماضي، مروراً بأشهر الاحتلال
الصدامي لبلدنا الحبيب الكويت.

سجلت الحركة الأدبية والثقافية في بلدنا ظهور أعداد كبيرة من العمالقة
الرواد والمبدعين الكويتيين الذين تركوا بصمات واضحة في مسيرة العلم
والثقافة والفكر والفن والأدب، وأجادوا فن الكتابة والتعبير شعراً ونثراً.

في مجموعتنا « **بصمات في تاريخ الكويت** » أراد مكتب الشهيد
أن يسجل للتاريخ فورة غضب الكويتيين على المحتل، وإرادة النصر على
الغاصب مهما كانت عدته وعديده، والرغبة في الشهادة فداءً للأرض
والعرض. فعندما تحقق النصر وطُرد الغزاة حكمت اليراعات الكويتية
قصص بطولات، ووثقت معارك شرف وملاحم شرسة، خاضها ضد المحتل،
شبان وشابات بصدور عامرة بعشق الكويت وبقلوب مؤمنة بنصر الله.

« **بصمات في تاريخ الكويت** » تضم باقة من أدب النصر على الاحتلال،
وصفحات من الكفاح لتحرير الأرض. وهي هديتنا لأبنائنا وإخواننا من هذا
الجيل ومن الأجيال القادمة في بلدنا الكويت، وفي كل مكان من هذا
العالم، نبراساً لتصدي الحق وانتصاره على الباطل، وشاهداً على حب الوطن
وتقديسه، ووفاء لمن ضحوا بأرواحهم فداءً للكويت.

الوكيل المساعد

المدير العام لمكتب الشهيد

فاطمة أحمد الأمير



مقدمة

إن الاستشهاد بحد ذاته ليس عملاً بطولياً.. ولكن الهدف منه هو الذي يستحق منا ومن التاريخ وقفة تبجيل واحترام.

فأبناؤنا الذين استشهدوا في أثناء الغزو الغاشم الذي بدأت مأساته في الثاني من أغسطس عام ١٩٩٠م، كان هدفهم من المقاومة والاستشهاد الدفاع عن أرض الكويت، فضحوا بأرواحهم من أجل ذلك. هؤلاء الأبطال حققوا هدفاً نبيلاً وعظيماً أعطانا فرصة لنبني من خلاله شموخنا وكبرياءنا من جديد.

هؤلاء الأبطال احتلوا بأعمالهم مخيلتنا واستطاعوا أن يسيطروا على شعورنا فتكثفت ذكراهم على سطح الأيام تنتظر الوقت المناسب لتهطل كالمطر على صحراء الوجدان القاحلة لتعطر الأجواء بشذاها السحري ولتطرز صفحات التاريخ.

فاسمحوا لي أن أشكر مكتب الشهيد لأنه فتح لي المجال بأن أكتب عن الشهداء وأغذي أوراقى البيضاء بأحداث نتشرف بها جميعاً.

فأرجوا من الله أن يوفقني في نقل الأمانة إلى الأجيال القادمة وشكراً.

فوزية السويلم



الساعة الخامسة والنصف صباحاً.. ينظر إلى الرزنامة
١٩٩٠/٨/٢م محدثاً نفسه... هذا التاريخ ارتبط بدايات مهمة
في حياتي، يتناول الصفحة.. يمزقها.. يقذف بها بعيداً..
صدى صوت شقيقته عادلة في أذنيه.. الصدى يلاحقه..
يمسك سماعة التلفون يتصل بوالدته يتأكد من أن الخبر
حقيقي.. تغزو عيناه بدلته العسكرية فيرتديها مسرعاً، على
عجلة يدير محرك سيارته، الشمس قد سطعت، وأصبح كل
شيء عصارة صفراء تنغمس بالمرارة.. يتجرعها بصعوبة..
يمر بالسيارة على الشوارع والأرصفة فيحس أنها تشتكي
الغربة.. يلفها اليأس.. تحاول أن تعبر شوارع الأمل.. لأول
مرة يحس أنه طالب دراسات عليا.. يتسلل فجر مقهور إلى
وجدانه الخصب.. لينمو الولاء وحب الوطن.. عشقه لرائحة
البحر الزفرة لتراب شواطئ الفنتاس والخيران يزحف كالمد
الطائش إلى عروقه.. يقود السيارة بسرعة جنونية.. يريد أن
يصل إلى المستشفى العسكري يطوف بسماعته الطبية على
المرضى المجندين يرى في عيونهم علامات الاستفهام.. يجيب
بصمت.. إنه الجحود.. يغتسل بأمطار الذكريات عندما كان
في الأفغان ضمن بعثة طبية أثناء الاحتلال وقامتهم الطويلة
النحيلة.. كانت عيونهم تحمل أسئلة أيضاً ليس لها جواب!

أخذ يتجول في ممرات المستشفى.. جلس على حافة
السرير وضع مقياس الحرارة.. قال وهو يبتسم.. الحمد لله
أنت في تحسن.





قال المريض: أنا عراقي ... أجااب هشام: .. وأنا أقوم بعملية كطبيب لا فرق لدي بين الكويتي والعراقي وتابع: الظلم لن يدوم .. لن يدوم .. الوقت يمضي ثقيلًا محملاً بالهموم .. أخذ يحدث نفسه يجب أن نبدل هوياتهم العسكرية حتى نحميهم من شر العدو .

اقترب من أحدهم وقال: تفضل هويتك الجديدة، قرأ الهوية ثم قال: أنا أعمل في المستودعات الطبية في صبحان!! ثم تابع: منذ متى؟!

اليوم الثالث من أغسطس والجو مُشبع بالرطوبة .. جنود الاحتلال تسرق حرية الأطفال وابتسامتهم وتقوم باستبدال أمنهم بالخوف والرعب، الطقس يقسو عليهم أيضا بالحرارة المرتفعة ولكنه أرحم من وجوههم الموحشة .. جموع المصلين في المسجد التابع للمستشفى العسكري يستمعون لخطبة الجمعة .. قال هشام وإيماءاته وملامحه تعبران عن شجاعة وصمود: علينا بالصبر والتلاحم والإيمان .. ثم أردف: إن اتحادنا قوة وتوكلنا على الله نصر لنا فيا أهل الكويت عليكم بالصمود أمام العدو وإن الله سينصرنا ..

الكون يغشاه ظلام ومخفر كيفان يسبح بدماء الجرحى بيديه المعطرة بعبق الولاء وعشق الأرض أخذ يضم الجرحى .. قال لزملائه وهو يجفف عرقه .. علينا بنقل العيادة من المخفر إلى أحد البيوت في نفس المنطقة قريبا من رجال المقاومة .. فكر قليلا ثم قال ما رأيكم في بيت تيفوني .





ظلام الليل يحجب الرؤيا .. خطوات الجنود تنذر بالخطر.. يقف هشام ينظر إلى منزل المقاومة عن بعد.. يخشى من همس الصراصير الذي يقتحم حواس السمع لديه.. يرتجف.. يشعر بانتفاضة الرفض تتغلغل في وجدانه.. يخطو نحو المنزل مُلثم الوجه يضع كفيه على حديد السور. يحاول أن يتسلق يقفز نحو الحوش.. الفناء واسع مُظلم.. يُسرع نحو القبلا يطرق الباب.. يفتح له أحد رجال المقاومة.. يتصل بالأطباء الكويتيين.. يطلب منهم المساعدة لمعالجة الجرحى من المقاومة..

يستلقي على الأريكة.. يأخذ شهيقاً وزفيراً.. ثم يضع كفيه تحت رأسه.. يُفكر.. يلتفت يميناً يحدث زوجته.. سأتفق مع الدكتور يوسف لتخصيص غرفة خاصة في مستشفى مبارك للولادة.

قالت زوجته: ممتاز.. ولكن هل سيوافق د. يوسف على ذلك؟

قال: لا أعتقد بأنه سيعارض.

الباب يُطرق بصوت خافت: د. يوسف.. أهلاً وسهلاً..

تابع هشام: سأطرح عليك فكرة.. ما رأيك بإنشاء جناح للولادة في مستشفى مبارك.. أجاب يوسف: فكرة جيدة.. وسيتفق مع تخصصك العلمي والطبي..

قال هشام: سأبأشر عملي هناك وسأقوم بتوليد النساء.





جال نظر يوسف.. سأل .. ما هذه المواد يا هشام؟

أجاب: هذه مواد تموينية سأقوم بتوزيعها على أهالي المنطقة وعلى المستشفيات.. قال يوسف وهو يقوم بتعديل غترته: جميل جداً.. إن النصر حليفنا إن شاء الله نظر هشام إلى الساعة ثم قال: حان موعد تدريب الشباب على الإسعافات الأولية في منطقة مشرف، سأل يوسف: أين سيكون ذلك؟

أجاب هشام: في مسجد الشمروخ.. إنه مقر اللجنة التكافلية.

السرداب ينغمس بهدوء مخيف، مُرعب.. يقف هشام مع مجموعة من الشباب يتدربون على الإسعافات الأولية.. يقوم بشرح درس عن الوقاية من الغازات السامة.. وآخر في طريقة التوليد.. رفع رأسه ثم قال: تفضل يا شيخ مساعد، قال الشيخ: بارك الله فيك.. استرسل هشام قائلاً: ما رأيك يا شيخ لو أنشأنا بقالة في المسجد لبيع بعض المواد الغذائية ثم أردف قائلاً: ليتسنى لنا جمع مبلغ من المال من ثم نقوم بتوزيعه على الأسر المحتاجة.. تحسس الشيخ على ذقنه ثم أجاب: هذا مشروع جيد.. سنقوم بتنفيذه.. وسيخدم قضايانا الوطنية.

قال هشام: سنقوم أيضاً بجمع التبرعات كرافد إضافي لمساعدة الأسر المحتاجة.





حدق فيه الشيخ وقال: دائماً تُفكر بالسليم يا بني هشام...
وضع رأسه على الوسادة .. أخذ يفكر وطلقات الرصاص
تدوي.. صوت الدبابات يلوث حواسه .. يُغذي شعوره
بالانتفاضة.. بالتخلص من الحشرات الضارة التي تزحف
على القمم وتحاول الوصول إلى أهدافها الدنيئة القذرة..
وهو يُحدث نفسه بصمت: ولكن أسوارنا قوية شائكة.. ونارنا
قوية .. ملتهبة.

أحد الأبطال.. من أهل الديرة.. المشيعون بالوفاء وبعشق
الأرض اللذيذ.. المتعب تخيّر ثلاثين بطلاً يشكلون خلية
مقاومة مسؤول عنهم مسؤولية تامة، سأسثمر فيهم هذا
الحب العظيم لهذا الوطن..

الوقت يمضي بطيئاً والجدران تعكس كآبة تبحث عن
الفرحة المسروقة من عيون الأطفال... السجاد الأخضر
والأثاث المتراكم في الغرفة يحدد ملامح أجواء مُفعمة بالغرابة
والوحشة.. عيناه السوداوان تُبحر في حزمة من الضوء
متراكمة في سقف الغرفة قادمة من الخارج تخترق النافذة
تتربع في موقع استراتيجي ولكنها تبقى في الأعلى .. يده
المعروقتان تمسك بالقلم تخطط المذكرات.. والمنشورات
يستعين بالحزمة الضوئية.. الرؤيا واضحة أمامه ولكنه يبحث
عن الشمس فيبحر في أعماقه ليجد نهراً ساطعاً.. يُعينه
على مواصلة الطريق.. يتأكد بأن أعضاء الخلية قادمون له
عن طريق الدائري الخامس.. حسب التعليمات.. بعيداً عن





نقاط السيطرة.. قال لهم عليكم بأجهزة الفيديو والسيجارة!
إنهما المنقذان الوحيدان في الأزمات!.. كل جندي صدامي
يصبح مرناً إذا رأى فيديو أو علبة سجائر!
ثم استرسل قائلاً: سنتصيد الكثير من الأوغاد بهذه
الطريقة! تابع: سأخبر زميلي يوسف الفلاح بذلك فهو قائد
منطقة الدعية.

ويا له من ذكي في اصطياد الثعابين المتشردة!

آلات الطباعة تعزف ألحان الصبر والمثابرة.. تتكاثر
الأوراق البيضاء حوله.. تسطرها أنامل ذهبية.. خشنة..
تقاسي وجع الغدر.. الخيانة.. أوراق ستشهد على جريمة
شنعاء تكتب ضد حمامة سلام كانت ترفرف بأجنحتها
لتحمي جيرانها من لفح الهجير.. خطفت الطعام من أفواه
صفارها لتطعم كل جائع متسول يطرق باب المساعدة.. رموها
بالرصاص حتى لا تطير وتزعجهم بتحليقها في سماء المجد
والعزه.. ولكن أجنحتها نبتت من جديد.. لتعود وترفرف
على العالم بأسره.. نهض من على الأريكة ثم ضرب المنضدة
بكفيه وقال بتحد وإصرار: لن أتركهم يسرحون ويمرحون
على أرضي.. سأمزقهم إرباً.. إرباً..

الساعة الثامنة ليلاً من يوم الجمعة الثالث من أغسطس
.. منطقة الشويخ تعج بالناس والمارة بالقرب من إدارة
الجوازات.





الأرصفة تتزف فوضى وقذارة تزحف الحشرات .. أخذت تنمو وتكبر حتى أصبحت أضخم من الإنسان حجماً وشراً .. قوتها الدماء البشرية النقية .. يسير ببطء يتحاشى الاصطدام بهم ليتمكن من إتمام العملية .. بنجاح!

يحمل السلاح من المستودع ويضعه في مؤخرة السيارة، ينطلق بسيارته إلى منطقة كيفان .. يوقفها بالقرب من أحد المنازل .. ويترجل ملتفتاً يميناً وشمالاً .. فينظر هنا وهناك .. يبدأ بإنزال الحمولة .. يفتح الباب بهدوء تام .. يدخل ومعه السلاح .. يتمم في صمت: هذا المكان الآمن لحفظ السلاح للجنة العسكرية، ثم قال: وبعد ذلك سننقل الباقي من المستودع في صبحان إلى رجال المقاومة .. تابع: وهناك أيضاً مستشفى القوات المسلحة .. نستطيع أن نأخذ منه أسلحة .. تمضي الأسابيع .. يخرج صورة ابنه من جيبه .. يتأملها .. يتساءل بصمت .. يا ترى أما زلت جميلاً؟ كم أتوق لرؤية والدتك .. كم أتوق لكم ..! النهار لونه ذهبي ينسجم مع لون بشرته التي تعبر عن فراق .. ملامحه التي تحدد خارطة الجهاد .. النضال .. قال لصديقه: هذه قائمة بكل الأماكن التي تتجمع بها القوات المعتدية .. قال زميله جميل .. لقد بذلت جهداً كبيراً حتى حصلت على هذه المعلومات.

أجاب: لا .. مجرد اني فقدت عشرة كيلوات، سألته زميله: أراك شارداً الذهن يا هشام .. هل لديك خطة جديدة؟ .. أجب: نعم .. ثم تابع .. سأشرحها لكم بدقة متناهية ..





المدينة تغرق بالظلام وأزقة الصليبية تُشاطرهُ الغُربة
الداخلية المتوغلة في الأعماق.. يتناول سلاحه.. يترجل من
السيارة.. يُعطي زملاءه الإشارة بأن يبدأوا إطلاق النار.. ثم
ماذا بعد؟.. الشجاعة تُصادقه.. تنمو بين أصابعه يتفاجأ
بأنه يحتضن وطناً بسمائه وأرضه، بترابه وبحاره بعواصفه
ورياحه.. يحتضن أمم تتقرّم غدراً.. يتراجع إلى الوراء..
يهرول نحو السيارة.. يصرخ.. هيا بنا.. هيا بنا.. ينطلق
بسرعة جنونية.. يتجه نحو العاصمة.. ينظر في المرآة..
لا أحد وراءنا.. الجدران تبهل إلى الله.. قطع السجاد
الأحمر الموزع في أركان المسجد.. تشتكي من خطوات
الجنود.. من اقتحام الحشرات.. من زرع البذور المتعفنة في
أرجاء المسجد.. الذي تتوسع في داخله مدينة.. يجلس في
الركعة الأخيرة من صلاة الظهر.. يلتف يميناً يتحدث إلى
أحد الجنود: لو تقاتلنا الآن ومُتتا سوياً فمن الشهيد فينا؟
الجندي بغباء.. لا أدري.. قال هشام: حسب ما تعلمناه في
الدين الإسلامي.. والله أعلم سأكون أنا..

تساءل الجندي بسداجة: لماذا؟!

قال هشام بشيء من الحزن.. لأنني أدافع عن بلدي.. عن
أرضي.. ثم أردف قائلاً: لأنكم غزاة.. أعرفت لماذا؟!
تابع وهو يرنو إلى الأفق البعيد: نحن الكويتيين طيبون
ولكن لسنا جبناء.. أخذ يردد.. لسنا جبناء.. سأدافع عن
وطني حتى آخر قطرة من دمي.

الاشجار تموت واقفة





العيون الشريرة تزحف نحو البيت الهادئ.. المُشيد من آهات الجسد المتقرح.. المصبوغ بمقاومة الجحود المتعمد.. عيون شريرة تطارده أينما كان .. لا يكف عن ممارسة ردة الفعل القوية.. الاستجابة لها واجب وطني هكذا يردد بين الحين والآخر.. حواسه حُبلى بروح الانتماء.. في كل ثانية يضع مولوداً جديداً يؤذي به الجنود .. يُزعجهم ببكائه المستمر.. وبقهقهته التي يُنثرها على بساطهم المرخرف بالكذب والنفاق، يحوم الشك حوله يُحيط به الخطر من كل جانب وهو مازال صامداً مع بقية أفراد الخلية.. يُعانق الأمل في انقاذ وطن تُلَمّع وتُصقل السيوف لقتله.. شفتاه الذابلتان تعرفان ألحان الحنين والشوق المجنون إلى الاحياء القديمة.. إلى الفرجان الضيقة التي يخرج أهلها لاستقبال العائدين من الفوضى.. تتجسد أمامه صورة النسوة وهي تحمل على رأسها الثياب المتسخة تسرن بخطوات بطيئة نحو الشاطئ وبعضهن مخضيات بالحناء.. يقترب أكثر من جدته التي تطحن الهريس والجريش استعداداً لقدم شهر رمضان.. كانت تحكي له حكايات الماضي قيل أن ينام.. كان يُصر على سماع هذه الحكايات.. قال هشام يحدث نفسه: الآن ماذا أحكي لأحفادي؟!.. سأحكي لهم عن المقاومة، تابع: ستكون حكايات جافة لا تحمل في طياتها إلا رائحة الحرب والغدر ولكن لا تخلو من عبق الفخر والاعتزاز.. سأخبرهم بأننا أبطال غُصنا في أعماق الخطر.. قمنا بالمجازفة.. قمنا بمطاردة الحشرات التي تتكاثر من حولنا.. أجدادنا لم يعانوا من هذه الحشرات مثل ما عانينا..





في غرفة تبديل الملابس.. يتساءل: يا ترى من الذي أتى بهذه الحشرات إلى هنا؟.. هل هي الحضارة؟ أم التطور التكنولوجي.. أم الحقد والغيرة؟.. فنحن لدينا عشب أخضر وأشجار ثمارها ذهب.. نظر إلى أعلى ثم قال: ربنا لك الحمد والشكر.. فكله من فضلك.. اتجه إلى القبلة ثم ركع ركعتين لله تعالى.. فجأة وجد الحشرات تنتشر في المنزل من كل جانب دخلت الخزانات والأدراج.. وصلت إلى السقف، تساءل: يا إلهي.. أية رحمة يستحقون!..

سأعلم أحفادي في المستقبل كيف يحاربونهم؟!.. وكيف يأخذون حذرهم؟.. قال لصديقه.. في بعض الأحيان أشفق عليهم!.. وأرى بأنهم أقل من أن نُقاتلهم!.. أجاب صديقه: ولكنهم دخلوا بيوتنا.. بل دخلوا عُرفنا.. وارتدوا ملابسنا.. وسلبوا منا قوتنا اليومي.. أجاب وهو يبتسم: حقاً إنهم ضعفاء في كل شيء!.. ثم تابع: ولكن يحق لنا قتلهم!..

الحشرات تتراكم.. تتحد.. تصبح أخطبوطاً.. يندس هشام في فراشه.. يحاول أن ينام.. تأتيه صرخات الرفض من كل بيت.. من كل رضيع، يتكرر على مسامعه نداء الأمواج الهائجة التي تحمل عباآت العجائز وأفواه لا تصمت.. تُردد.. الله أكبر.. من على سطوح المنازل.. يتولد في داخله عنفوان جديد لا يعرفه.. يحاول أن يصادقه.. ولكن يبقى هو السيد الأمر.. الناهي.. يدفعه بقوة إلى حمل السلاح.. عنفوان حب الحب.. حب الأرض.. حياته تلك اللحظة التي تركت واقعاً أرعن يمر من خلال ثقب الزمن.. ينهض من





الفراش ثم يقف، تسأله زوجته: ما بك يا هشام؟ سألتها: هل أنت خائفة من صوت الدبابات؟ أجابت: لا، قال: أراك مرتبكة بعض الشيء، أجابت وهي تهز رأسها: نعم، قال: «لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» صدق الله العظيم، قالت: ولكن أين أنت ذاهب الآن؟ إن الوضع خطير جداً، أجاب: لدي اجتماع مهم مع عناصر الخلية، قالت: أنا خائفة يا هشام.. أجاب وهو يبتسم: ولكن أنا لست خائفاً.. نظر لها ثم قال: إن الله موجود تصغر الأنا في خلجاته حتى تتلاشى.. يتضخم الآخر.. يُمارس نشاطاته خارج دائرة الذات.. تنام الرغبة على أرصفة الشوارع.. رغبة الانتقام تثبت بالقرب من الأشجار.. تُزاحم العشب والعرُفج.. تُسقيها دموع الأطفال.. وهو يشتعل كعود الثقاب يحاول أن يُبخر كل السحب الحبلى بأهات الوطن.. يحاول أن يرفع الستائر السوداء التي تحجب الرؤيا عن وجه الفجر الملون بألوان السدر والبمبر المتدلى في حوشنا الكبير.. يحاول أن يجمع قطرات الندى ليتطهر بها الجنود من قذارة الحقد والضعينة.. من أفكارهم الشيطانية.. تهبط على مخيلته خطط وخرائط مرسومة بغارات ليلية.. يخرج من الغرفة يتجه إلى الغرفة الثانية.. يُمزق بعض الأوراق.. يشطب بعض السطور.. يتصل بعناصر الخلية.. سنقوم الليلة بعملية محكمة.. قال أحد أفراد الخلية: ما دوري أنا.. أنت تراقب الطريق.

النجوم تتلألأ في سماء الكويت.. تُبشر بالخير.. تُخبر العالم بأن النصر توأم أرواح الكويتيين، بأنهم عمالقة لن





يتفرجوا .. ولكن الحشرات تتزايد .. أصبحت تنقلها حافلات
وتقذف بها في كل الطرقات .. غزت جيوبه .. خصلات
شعره .. بيتسم .. يقول: اقتربت نهايتهم ..!

سأله صديقه كيف ذلك يا هشام؟

أجاب: جيوبي ملغمة ..! إنها حتمية القدر.

ثم تابع: كلكم هشام ...! وكلكم جيوبكم ملغمة.

قالوا بصوت واحد .. نعم إنه الرفض .. إنه الموت .. يأتيه
من بعيد زقزقات طيور النورس القادمة من الجنوب ومن
المحيطات الغربية البعيدة والقريبة تحمل بين طياتها عروساً
جميلة، عطرها الفواح يقضي على جميع الحشرات .. تقترب
منه طيور النورس البيضاء وهو يجلس على الشاطئ يخطط ..
يرسم بأنامله الرفيعة مواقع الجنود .. يُعين كل عنصر من
عناصر الخلية ووظيفته .. طيور النورس تفهم لغته .. لغة
الجهاد .. النضال .. المقاومة .. الكفاح .. لغة من الصعب أن
يتفهما أهل الغدر .. تداعبه طيور النورس .. تهمس في أذنه
النصر قادم .. الظلم لن يدوم .. ستعود السمراء إلى أحضان
أهلها .. وستكون بين يديك عروس جميلة ترتدي ثوباً بألوان
الدم والأثل والليل الوقور بألوان السلام .. وسترقص شقيقاتها
العذارى طرباً ومرحاً .. وأنت ستقف تحيها وتقبل جبينها ..
حتى لو كنت غائباً .. فذكراك سينسجها كل أهل الكويت
ضفائراً طويلة وسيمنحونك درعاً ووساماً .. يشعر بقشعريرة
تسري في جسده .. يرى الدبابات الغازية تزحف نحو منطقة





كيفان .. بيتسم ثم يقول بهدوء تام: خذوا هذا الطعام .. كلوا واشربوا ثم يردد قول الله تعالى: ﴿لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ صدق الله العظيم .. قال: سأقوم أصلي ركعتين لله تعالى .. يفتح صنبور الماء يغسل وجهه، ينظر في المرآة .. يحاول أن يتعرف على صاحب الصورة ..! يسأل من هذا الشخص ..؟ عيناها غائرتان .. لونه شاحب .. مُعبأ كل جزء فيه يحتوي على انتفاضة مُبطنه بالقهر .. كل حواسه مُجندة لإخماد شعلتهم .. انحنى ليغسل وجهه .. فتح الصنبور مرة ثانية .. خرجت منه طيور النورس .. قالت: لا تتحني .. انظر إلى أعلى .. الحشرات تتساقط من السقف .. لا تعطهم فرصة .. لا تتحني .. صرخ .. لا .. لا .. لن أنحني سأرفع رأسي فوق هياكلهم، ارفعوا رؤوسكم فوق .. قفوا كالأشجار .. قاوموا الرياح والعواصف .. يجلس بين أبنائه .. يضع أمامه ملفاً به أوراق مطبوعة أخذ يتحصنها .. يقرأ أسطرها، سطرًا سطرًا سينفذ كل العمليات مع عناصر الخلية .. ولكن متى وفي أي ساعة؟ هذا هو المهم .. يُغادر الحزن إلى فضاء التفاؤل والإيمان بأن الحق سينتصر قريباً .. يُصادق الابتسامة يُهديها للعيون الباكية .. التي يأسرها رعب الجيوش ونقاط السيطرة، قال يُحدث أبناءه ويطمئنهم .. كلها يوم أو يومان وستعود المياه لمجاريها إن شاء الله .. عاد إلى المنزل والليل يكسو الوجوه بردائه الأسود .. يخطو خطوات فيها جرأة وحماس .. يشعر بارتياح فقد نفذ العملية بنجاح .. رصد أكبر عدد من الجثث .. زرع الرعب في قلوبهم السوداء كهذا الليل القادم .. يدخل المنزل .. يُقبل أبناءه يطمئنهم كعادته





بأن الغيوم ستزول.. يتجه إلى الحمّام يفتح الصنبور.. يخرج منه طيور النورس.. تقول انتبه..! انظر إلى السقف.. إنه مليء بالحشرات.. ستسقط، ستموت.. وستأتي بالعروس السمرء الجميلة ستتزوجها.. وستتحرر من الأسر.. مهرها هزيمة الأعداء والنصر.. إنها تعشق أن تُحلي عنقها بالنصر والعزة.. قال: كم أحبها.. وهي أيضاً تحبني.. متى يُعقد قرآني عليها واغتسل بترابها.. ثم تابع.. سأنحت الصخر لأحرق لها النصر.. كل عناصر الخلية مستعدون لعقد قرآنهم عليها..! تحيط به طيور النورس.. تظله.. ينظر إلى الشارع يبحث عن صور جميلة.. افتقدها منذ أسابيع.. صالات الأفراح تحولت إلى معسكرات وثكنات جنود.. غبار ملوث برائحة العفن الأخضر يحجب الرؤيا ما عدا عناصر المقاومة.. يُحدثه صديقه وصدى الليل يُحيط بهما من كل جانب.. عليك بمغادرة المكان فوراً.. لأن هناك من يطاردك ويتتبع خطواتك.. ثم أردف قائلاً: لقد وصلت أخبارنا إلى الجنود.. فعليك بالمغادرة.. ومن الأفضل لو غادرت البلاد.. لأنك في خطر.. أجب: مستحيل ذلك: قال صديقه الآخر: وما قاله صديقنا عين العقل.. لقد رأيت أكثر من سيارة تُراقبنا، قال هشام: لن أتزحزح من مكاني، قال يحدث نفسه: سأبقى هنا لأتزوج عروس الخليج، عروس البحر.. سيحيون الحفل طيور النورس.. يدها تضغط بقوة على مطارة الشاي لينسكب في الأكواب.. هيا احتسوا الشاي قبل أن يبرد.. لامست شفتاه الكوب حاول أن يتلذذ بطعم الشاي مثل كل مرة.. ولكن هذه





المرّة لا يستطيع.. فهو يتجرّع مرارة الاحتلال.. يحتضن وطناً
يتأمرون على قتله.

الساعة الواحدة صباحاً.. اليوم السبت الموافق
٢٢/٩/١٩٩٠م الهدوء يُخيم على المنزل.. يتخلله رعب مُخيف..
يحاول أن يسدل الستار عن مسرح الجريمة بابتسامة عريضة
يرسمها على شفثيه.. المتقرحة.. يسيطر على أعصابه ليبدو
أكثر رزانة.. ماذا يحدث لو أخذنا السيطرة على عقولنا بسبب
نقاط السيطرة المنتشرة هنا وهناك وفي كل زاوية تسجل
حركاتنا.. حتى طريقة تنفسنا يعتبرونها شفرة.. تابع يحدث
نفسه: آه لو تعود أيام الغوص.. لقد حكى لنا والدنا بأنها
جميلة جمال عروس الخليج.. لو عادت لكننا أخبرناها بقهر
الأيام.. يُحدث الجندي بنظراته الغامضة. يستجوبه: لماذا أنتم
أغبياء؟ إلى متى وأنتم تكتبون التاريخ بشموع تشتعل؟

إلى متى ترسمون خارطة الأمة العربية على ماء النهر
الجاري..؟ لماذا تقطعون الأشجار التي تحميكم من وهج
الشمس..؟ يا لكم من أغبياء.. فقد اعترف أصدقاؤك بكل
شيء.

قال وهو لا يزال يبتسم: ماذا تريدون مني طالما أصدقائي
اعترفوا بكل شيء.. ثم تابع: أنا ليس لدي شيء اعترف
به ولا حتى أسلحة.. ثم أردف.. لأنني أحارب حشرات كما
ترون.. فالمنزل مليء بهم.. هل الحشرات تحتاج إلى أسلحة
لمحاربتها؟! قالوا: يا لك من لئيم.. ويا لك من كذاب هيا
دلنا على مكان الأسلحة.. واصل ابتسامته وقال بهدوء ليس





لدي أسلحة.. قال الجندي.. سنجردك من كل شيء حتى من ملابسك.. سنقوم بسرقة منزلك.. لن نترك لأهلك شيئاً حتى الملابس المنشورة على حبل الغسيل.. هيا يا جنود انتشروا في المنزل.. استولوا على كل محتوياته.. الساعة الثالثة صباحاً لا يرى غير السواد أمامه.. تتجه السيارة البيضاء الصغيرة باتجاه المعتقل وهو لا يدري إلى أين ذاهب.. يتذكر توسلات زوجته للجنود.. أرجوكم اتركوه.. اتركوا زوجي.. تصرخ.. لا أرجوكم.. يتذكر أطفاله وهم يبكون وهو يقول لهم سأعود إن شاء الله.. يتوسد صخرة صغيرة، يتمدد على الأرض بجانبه إناء قديم تلتف حوله الحشرات.. يحتوي على ماء عكر.. مليء بالشوائب ينظر إليه ويعض شفثيه يتوق إلى قطرة من الماء ولكن يخاف من الحشرات أن تصابه بالرعب إذا مد يده الشجاعة ليتناوله.. قال بصمت: ربما تكون الحشرات أصدقائي ويتعاطفون معي..! إنهم أفضل من الجنود..! ثم تابع: يا له من إناء نظيف!.. إنه أنظف من الوجوه التي أراها أمامي.. طيور النورس هل سيعرفون مكاني الجديد؟.. فتح راحة يديه وجد بها جروحاً عميقة تنزف دماً.. تحسس رأسه. لم يجد خصلة واحدة من شعره الكثيف.. حاول أن يحرك قدميه.. لم يستطيع تفقد أظافره.. لم يجدها في مواضعها.. وجدها منثوره حوله.. قال: ربما تأتي طيور النورس إلى هنا ولكن هل تستطيع أن تتعرف عليّ؟ يأتيه بصيص من الضوء من خلال فتحة صغيرة جداً في جدار.. عصا مطاطية صلبة مزودة نهايتها بقطعة نحاسية حادة تهز أمامه.. فتدق ساعة الخطر.. ساعة الوقوف على حافة





الحبلى.. العالم يتباعد، يتقارب.. تتشابك الأزمت يقترى من الاختلاق.. تعزف الطيور لحناً حزيناً.. تتمايل الأشجار رافضة الخضوع.. يصرخ.. أه مع كل نسمة عبير تمر على قصور صدام وأزلامه.. على موائد أعياد ميلاهم.. جسده المهترىء المتشقق.. المطعم بالألم يربض على أنفاسهم أسداً.. يزعجهم.. يضايقهم بهذا الإصرار والتحدى.. لا يكاد أن يلفظ اسمه، تحتويه الأمكنة الجهرافية تبث في روحه حباً وحُلماً وردياً بلون الجوري والقرنفل.. يهدونه ربيع الشهادة.. البطولة.. يزخرفون اسمه بحروف من نور على جبينهم فيصبح أكثر ضياءً، ليصبح وطناً أكبر من العالم.. أكبر من الكرة الأرضية.. يُتمتم.. يا أصدقائي الأسرى لا تخشوا التعذيب فهو تخفيف من الذنوب.. وإذا كانت النهاية الشهادة.. فالحمد لله على ذلك.

ثم أردف قائلاً: لست خائفاً من الموت ولكن لم أكمل تنفيذ بقية العمليات.. إنها الخيانة، القدر أحد أدياء الصداقة كان جاسوساً لصالح الطغاة.. دخل جندي بقامته الطويلة وقال وهو يرفع حاجبيه أما زلت حياً؟!.. أجاب بهدوء.. الأعمار بيد الله والحمد لله على كل حال.

الساعة الحادية عشر.. تقف السيارة بالقرب من المنزل. يترجل جنديان وهو بينهما لا يستطيع الوقوف.. يطلقون رصاصتين والثالثة لدعوة طيور النورس لتحتفل بشهادة البطل.. ليقروا الفاتحة وليعقدوا قرآنه على حبيبته الكويت الذي كان مهرها حياته.





